« هذى طباع الناس معروضة تخالطوا العالم وفارقوا »
« أبو العلاء »

« لا تكاد ترى كاتباً من كتاب الشرق وأدبائه قرأ أساطير الفلسفة ولم يتأثر بها فى فجر حياته ، كما أنك لا تكاد ترى كاتباً من كتاب الغرب ومفكريه قرأ قصص بو كاتشو ولم يستمد منها قبساً من خياله العالى ولم يتأثر بأسلوبه القصصى الرائع . وحسبك بشوسر وشكسبير ولافونتين وموليير وغيرهم من أساطين الكتاب والشعراء .

فلا غرو إذا حاولنا أن نضع لقراء الشرق وأدبائه نفس الأساس الذى بنى عليه كثير من رجال الفكر فى أوروبا لعله يترك فى نفوسهم ماتركه من الأثر فى نفوس الغربيين »

نكبات الغيرة

« مارسيليا » — كما تعلمون من أقدم مدن «بروفنس» وأشهرها وقد زادخطرها موقعها من البحر فبلغت فيما مضى شأوا بعيد المدى فى التجارة وكانت فرضة يؤمها القاصدون، بالرغم من أن شهرتها فى هذه الأيام قد أصبحت أقل منها فى ذلك الزمان

وكان من بين تجار هذه المدينة تاجر قد بلغ من الغنى أقصاه وأحرز ثروة هائلة من العقار والمال، اسمه «نارنالد كلواد» أهله غاية فى الضعة وان كان الرجل نزيها شريفاً النفس طاهر القلب

ولدت له زوجه كثيرا من الأطفال من بينهم بنات ثلاث أكبر من اخوتهن الذكور، تبلغ سن صغراهن أربعة عشر، وسن الأخريين — وقد كانتا توأمين — ستة عشر عاما، ولم يكن ليعوق أمهن عن تزويجهن الا ترقبها عودة زوجها من اسبانيا بعد أن ينهي أعماله تجارته هناك. كان اسم احدى التوأمين «نينت» واسم صغراهن «برتل»

هام بحب «نينت» شاب فاضل اسمه «رستيون» ولكنه فقير لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، وأغرم بها إغراما، ولم يكن هيامها به أقل من هيامه بها.

وإذ كان خفيف الروح جذاب الحديث حلو المعاشرة، عرف كيف يخطب ودها ويستميلها اليه، فلم تقف أختاها في سبيل حبهما، بل على العكس من ذلك شجعتاهما عليه فذكت نار غرامهما وتما حبهما حتى بلغ أقصاه

وبينما هو ناعم بحبه اياها متمتع بعطفها عليه يتذوق لذات السعادة، هام شابان بحب الفتاتين الأخريين، وكان الشابان شقيقين فقدا أباهما صغيرين وورثا منه ثروة طائلة وقد هام أحدهما بحب «كاولين» وهام الاخر بحب «برتل» وكان اسم الأول «فولك» واسم الثاني — وهو الأخ الأصغر — «ايجويت»

لم يكد عشيق «نينت» يعلم نبأ هذا الغرام الجديد حتى عزم على الانتفاع بهذه الفرصة واتخاذها وسيلة للخلاص من فقره بمساعدتهما أياه. وبهذه الطريقة بدأهما بالتعارف ولم يزل دائباً في تسهيل السبل لتمكينهما من لقاء عشيقتيهما ومرافقتهم جميعا في المواعيد التي يضربها لهم بما يبذله في ذلك من سعة الحيلة والذكاء

وجماع القول أنه لم يكد يدع فرصة تسنح دون أن ينتهزها ليظهرلها اخلاصه وحماسته ويصطنعهما. ولما وثق من استمالتهما إليه واكتساب ودهما، دعاهما ذات يوم إلى الفطور معه في بيته. وبعد أن خاضوا مختلف الأحاديث التفت اليهم قائلا: «أي صديقي»

إن نفسي تسول لي أني جدير منكما بمثل ماصنعته معكما من الفضل والاحسان حتى أرتاح لما أتيته معتقدا أنه كان في موضعه، فان معرفتي إياكما وارتباطي بكما وثيقة الأواصر متينة الأسباب أيضاً كذلك

سأعمل لكما كل ماعلي وأنفذ لكما ماتصبوان إلى تحقيقه من الرغبات غير محجم عن البرهنة لكما على صدق حبي وولائي بكل وسيلة

على أنى لا أشك أيضاً فى ولائكما لى وتعلقكما بى. وهذا مايدعونى إلى الافضاء اليكما باقتراح — اذا قبلتماه — جعل ثلاثتنا أسعد الناس !

« تعلمان أن أقل مايقال فى هيامى بعشيقتى « نينيت » أنه لايقل عن هيامكما بأختيها، وتعلمان كم نلاقى من العقبات التى تعترضنا جميعا فى سبيل رؤية من نحب، وكم يلاقين كذلك من الصعوبات فى سبيل لقائنا ! حسن ! وهذا مادعانى إلى التفكير فى إزالة هذه العقبات التى تكتنفنا والتغلب على كل مايحول بيننا وبين هنائنا أو يكدر صفوناإذا قبلتما ما أقترحه عليكما الآن

أنتما غنيان ،أما أنا فقير . فإذا شئتما أن نتقاسم جميعا ثروتكما الطائلة ، وأن تصبح لنا فيها حقوق متساوية تمكن بها من أن نعيش جميعا أصدقاء أوفياء . فأنى أؤكد لكما حينذاك أننى واثق من قدرتى على استمالة الأخوات الثلاث وإغرائهن بالسفر معنا فى أى وقت نريد : هنالك لايكون على وجه الأرض أسعد منا عشاقا ولا اهنأ بالا وأعظم غبطة !

ذلك مايجب عليكما ان تفعلاه ، لتبلغا ماتريدان !

كان الأخوان مدلهين فوصل هيامهما إلى حد الجنون فرأيا أن اقتراح صاحبهما سيمكنهما من التمتع بمزيهوبان بحرية تامة لايشوبها ضيق ولا تعترضها عقبة، فلم يترددا لحظة واحدة فى قبول اقتراحه فرحين، وأجاباه قائلين :

« عليك وحدك أن تختار المكان ، فنحن على استعداد للرحيل الى أى وطن يحلو لك الاقامة فيه ، مادمنا سنقيم مع من نهوى ! »

ابتهج « رستينيون » بهذا الجواب ابتهاجا لاحد له وهو أمر طبيعى : وبعد بضعة أيام وجد طريقاً مكنته من الوصول إلى حبيبته الأثيرة « نينيت » والخلوة بها فأسر اليها بما أبرمه مع « فولك » و « ايجويت » من خطة الزميل . ورجاها أن تسهل لهم السبيل الى إنقاذها !

لم تكن « نينيت » الصغيرة أقل منهم ابتهاجا لهذا الرأى ، ولا أقل رغبة فى انجازه فتحركت شوقا إلى التغلب على كل مايعترض طريقهم من العقبات حتى تهدأ بذلك ثورة قلبها الهائم المشتعل بنار الحب

أكدت له أنها ستقوم راضية بهذه المهمة متكفلة باقناع أخيها ، وسألته أن يسرع فى إعداد معدات السفر فى أقرب وقت

اسرع « رستيون » بالذهاب إلى الشقيقتين ليبشرهما بهذه الخطوة الأولى التى حالفه التوفيق فيها

وبعد أن قر رأيهم على اختيار مدينة « كاندى » وطنا لهم ، باع الأخوان جميع ما يملكان من أرض وبيوت محتجين برغبتهما فى الاكتساب من طريق التجارة. واشتريا سفينة حربية زوداها بمعدات الدفاع خفية ، مترقبين الوقت الملائم للاقلاع بها جميعاً

أما « نيفيت » فلم تكن أقل من أختيها تحرقا إلى اللقاء ولا اضعف منهما حباً فقد عرفت حق المعرفة كيف تميل رأسيهما ، ومن ظللن يترقبن ساعة الرحيل متحرقات إليها بفارغ الصبر

وها هى اللحظة المحبوبة التى ارتقبنها قد حانت . فاسرع البنات الثلاث إلى خزانة أبيهن الحديدية فاحتلن على فتحتها وأخذن فيها كل ما يستطعن حمله من المال ثم خرجن متخفيات أثناء الليل بسيمات عشاقهن الذين كانوا ينتظرون وصولهن بفارغ الصبر

اقلعت السفينة بالعشاق جميعاً بعد أن أرخوا لها القلاع وطابت لهم الريح طول يومهم فلم يعكر صفوهم أى معكر ، حتى وصلوا فى المساء إلى « فينيس » حيث تذوق الأخوان ومن يحبان للمرة الأولى اعذب لذات الحب — أما « رستيون » فلم يكن أقل منهم تنعما بحبيبته وان كان قد سبقهم فى الحب ، فقد طالما نعم بها من قبل فى المرات السابقة حتى إذا حانت هذه الساعة المرتقبة كانت أبهج مبهجات حياته

وبعد أن قضوا ساعة من ساعات اللهو فى « فنيس » وتزودوا منها بكل ما يحتاجون من الضروريات سارروا فى طريقهم سائحين وظلوا على أسعد حال واهنأ بال حتى بلغوا « كاندى » فى أقل من ثمانية أيام ، فرست سفينتهم عن كثب منها ونزلوا فاشتروا أخصب الاراضى واجمل البيوت وأجمل المتنزهات ، ثم عاشوا عيشة الترف والرفاهية وقضوا أجمل أوقاتهم فيها ، فاقتنوا كلابا ضخمة للصيد وطيوراً جارحة واشتروا أثمن الجياد وأتوا بعدد وفير من الخدم ولم يدعوا شيئاً مما اختص به الاغنياء الا أحضروه.

ولم يكن ليمر بهم يوم دون أن يقيموا ولائم جديدة ويستحدثوا مسرات طريفة لعشيقاتهم ، وجماع القول أن السعادة والفرح قد عمراهم جميعاً

وإذ كان لكل بداية نهاية وكان الانسان قلباً لا يلبث أن يضجر من كل شيء حتى من دوام السعادة، واذ كان جمال أي حسناء مهما كان باهراً لا يلبث أن يقل شيئاً فشيئاً في عين حبيبها مهما كان مغرما بها على مدى الايام وطول المدة والعشرة. بدأ « رستنيون » الذي كان مدلها بحب عشيقته يشعر أن حرارة حبه آخذة في طريق النقصان وأن جمالها أخذ يقل في عينيه يوما بعد يوم فبدأها بالخيانة

راى في بعض المواسم آنسة كريمة الاصل سحره جمالها فوقع في حبها وأغرم بها اغراماً

حاول جهده أن يخفي حبه الجديد عن جميع الناس لاسيما عن « نينيت » ولكن ادامة نظراته اليها أمام زوجه التي تنافسها، وما كان يبدو على وجهه من مظاهر الفرح برؤيتها وقلقه الدائم إذا لم يجدها واسراعه دائباً للبحث عنها في كل مكان تحله . كل ذلك قد ملأ نفس عشيقته « نينت » شكوكا وريباً . وسبب لها قلقاً شديداً. فقد كانت تحبه إلى اليوم بنفس الحرارة والعنف اللذين أحبته بهما من قبل دون أن يعترى حبها أو ولاءها له أقل فتور .

ومنذ تلك اللحظة لم يكن ليسير خطوة واحدة دون أن تراقبه زوجه المارسيلية متجسسة ، ثم تنهال عليه تعنيفاً وعذلا وزادت غيرتها حتى أربت على الغاية . فاصبحت تلاحقه وتغاصبه لأتفه الاسباب وتلحاه على اضأل الشبه التي تتخيلها .

ولكن العقبات تحبب إلى النفس اقتحامها وتغرى بتذليلها وكل ممنوع متبوع وليس أشهى للنفس من التطلع إلى مالا تستطيع الوصول اليه. لذلك كانت كلما أمعنت في أبعاد عشيقها « رستنيون » عن منافستها زادته هياما بها وكلفا بلقائها.

ولكن هل وصل العشيق الى اجتذاب قلب هذه المحبوبة الجديدة التي اشتعلت نيران حبها في قلبه ؟ وهل تمكن من استمالتها اليه، ذلك مالا نعرفه تماما ، وغاية علمنا أن نينيت بعد ان رأت مايعزز ريبتها من الدلائل والبينات لم ترتب في الاعتقاد بخيانته إياها جازمة في غير تردد

رأت في هذه الخيانة مصدر غم ونكاية لا ينفد ، فامتلأ قلبها أسى وحنية ولم يلبث أن انقلب حبها واخلاصها لعشيقها قلى ومقتا . وحل مكان هيامها وعطفها الأولين بغض وهياج، ودفعتها نفسها الثائرة الناقمة الى التفكير في الانتقام منه

تملكت نفسها هذه الفكرة فارسلت الى عجوز رومية حبيرة بأسرار السموم فاستدعتها اليها متوسلة — بعد ان استمالتها بالمال والرجاء — أن تصنع لها سما قاتلا يرفى ذات ليلة تقدمته الى عشيقها — وقد صهرت رأسها فكرة الانتقام فلم تعد تفكر فى شناعة ما تصنع وامتلأت نفسها حقدا فلم تبين حقيقة ما تقدم عليه — ولم يكد عشيقها يتجرع ذلك الجحيم الزعاف حتى مات فى نفس الليلة التى شربه فيها . وكان لهذه الميتة السريعة الفجائية التي ماتها أسوأ الوقع فى نفس قولك وأخيه وأختى نينيت فامتلأت نفوسهم غما والما لانهم كانوا يجهلون سبب موته الفجائى . وتظاهرت نينيت بأنها حزينة مثلهم حتى تبعد عن نفسها الشبهات فلا ينكشف جرمها الذى لم يلبث طويلا دون أن يظهر أمره للملأ

مر على هذه الجريمة زمن قصير، ثم شاء الله سبحانه أن تضبط الرومية العجوز متلبسة بجريمة أخرى من الجرائم التى تعودت ارتكابها فلما سألوها أقرت لهم بكل شيء واعترفت بجرائمها التى افترفتها دون أن تستثنى واحدة منها ، ووسائها ذلك الى الافضاء بالسبب فى موت « ريتيون » الذى صنعت السم لأهله كله

ولم يكن بعد هذا الايضاح الا أن قام دوق كاندى — دون يعاتب أحدا فيما اعتزمه — ثم ذهب تحت جنح الظلام على رأس فئة من جنده وفيرة العدد . فحاصر القصر الذى فيه أبطال قصتنا والتى القبض على « نينيت » ولم يكد يفعل حتى اعترفت قبل أن يشرع فى التحقيق معها — بكل ما يريد الوصول اليه من تفاصيل الخبر دون أن تخفى عنه شيئا

وليس من الصعب على القارىء أن يمثل لنفسه كم كانت دهشة فولك وايجويت التى استولت عليهما حينما علما من الدوق سبب القاء القبض على أخت عشيقتيهما، ولم تكن دهشة الأختين وألمهما بأقل من ذلك، والحق ان كلا من العشيقين قد بذل كل ما فى وسعه وسلك كل السبل لانقاذها واستدرار الرحمة عليها راجيا الدوق أن يعفو عن جريمتها وألا ينزل بها ما تستحقه من نكاله العادل ولكن توسلاتهما

ذهبت أدراج الرياح وتوج الفشل سعيهما معاً، فقد صمم الدوق على معاقبتها رافضا حتى تخفيف العقوبة عنها

* * *

كانت مادلين الى صغرها — جميلة وكان الدوق قد خطب ودها زمنا . دون أن يظفر — من هواها بطائل فبدا لها أن فى استطاعتها انقاذ أختها اذا أظهرت للدوق موافقتها له وبهذه النية أرسلت اليه فى منزله خفية ، تنبئه بلسان رسولها الذكى أنها تقبل تلبية رغباته اذا أرجع لها أختها ، وأنها تعاهده على أن يظل أمر أختها بعد أطلاقها سرا لا تبوح به لأحد ، أدخل هذا الاقتراح فى قلب الدوق أكبر السرور ولقد تردد مرارا فى قبوله ولكنه استقر أخيرا — مدفوعا بعامل الحب — أن يؤثر هواه على العقل والعدل فأصدر أمره الى رجاله بعد أن اتفق على هذه الخطة مع مادلين. وأمر بالقبض على فولك وايجويت بحجة أنه يريد أن يسمع قولها فى مواجهة نينيت لتعلم ماذا كانت لها يد فى التسميم ، وانسل فى الليلة التالية خفية الى منزل الحسناء .

وقد عمل قبل كل شىء على نشر إشاعة اهلاكها بعد أن تظاهر أنه وضع خفية « نينيت » المجرمة فى جعبة ألقوا بها فى اليم فى نفس الليلة التى أرسلها فيها إلى أختها فنصحت بلقائها بعد اليأس من عودتها وقد طلب اليها حين أرجعها لها أن تخفيها حتى لا يضطر الى معاقبتها اذا ظهر للناس انها لا تزال على قيد الحياة

وفى اليوم التالى أطلق سراح الأخوين فعادا الى منزلها وليس يخامرها ريب فى أن « نينيت » قد هلكت بعد ان اغرقها اغراقا ، فطفقا يعزيان عشيقتهم عن موتها ورغم مابذلته « مادلين » من العناية والحيطة فى اخفاء أمر أختها ، فان فولك لم يلبث أن تكشف له وهمه حين لمحها فى البيت وعلم أنها لا تزال على قيد الحياة: و بلغت دهشته من ذلك أقصى حد وأدخل هذا السر فى نفسه الريب والشكوك فلم يهدأ باله وعادت إلى ذهنه توا ذكرى حب الدوق وغرامه السابق بها ، فلم يتردد فى الحكم بأن اطلاق سراح « نينيت » قد بذلت عشيقته عرضها للدوق ثمنا له

أفضى إلى « مادلين » بما يساور نفسه من القلق مستفسرا منها عن سر نجاة أختها فأخذت تقص عليه حكاية طويلة ملفقة حاولت جهدها أن تضلله بها لتخفى عنه حقيقة ما حدث

ولكن لم يقتنع بشيء من هذه الخطابة الطويلة قط . بل كانت — على العكس من ذلك — سبباً فى زيادة شكوكه وشبهاته ، واشتعلت نفسه غضباً فلجأ الى تخويف عشيقته وتهديدها اذا لم تفسر له هذا المعمى وتوضح له حقيقة ما جدث

خشيت الفتاة تفاقم غضبه وراعها تهديده فجبنت أمام ذلك ، ودفعها خوفها الى الاقرار بما ساقها اليه حب أختها وحدبها عليها ، والاعتراف بما بذلته للدوق ثمن نجاتها

وقع هذا الاعتراف على قلب حبيبها وقوع صاعقة انقضت عليه، فلم يعد يحس إلا ضربات قلبه المضطرب من الغيظ والحنق . وقام فى الحال هائماً فامتشق حسامه وهوى به الى صدر تلك الفتاة التعسة وهى تهوى على ركبتيها ضارعة اليه تسأله العفو — فخرت صريعة تتشحط فى دمائها .

ولم يكد ينتبه لنفسه حتى أدرك خطورة ما فعل وخشى موجدة الدوق وعقابه. إذ ظهرت له جريمته فأسرع الى « نينيت » فقال لها — وقد ارتسمت على جبينه أمارات الهدوء والسكينة : لقد أتيت لآخذك معى ، حتى نهرب من وجه الدوق الذى بلغه أنك لم تغادرى المدينة بعد ، فأصدر أمره بالقبض عليك وأنت جديرة أن تفرى منه وتهربى من انتقامه ، وظل يقنعها أنه جاء مسرعا لانقاذها لأن الدوق علم أنها لا تزال مقيمة فى المنزل دون أن تصدع بأمره ولم تغادر البلد

كانت « نينيت » جد متوجسة شراً من الدوق خائفة من عدوله عن العفو الى الانتقام ، وكان لها كل العذر فى هذا الخوف ، فان الطمأنينة لم تدخل قلبها بعد ذلك لم تتردد فى مطاوعته وتلبية اقتراحه ، فنهضت مسرعة غير مفكرة حتى فى توديع أختها وسارت معه فى الطريق أول الليل — بعد أن حمل كل ما وجداه فى البيت من المال — ثم قصدا إلى أول ميناء قريبة منهما فأبحرا منها دون أن يعرف أحد وجهتهما ولا ما آل اليه مصيرهما

***

أما الدوق فلم يكد يعلم بأفول « مادلين » حتى أصدر أمره بالقبض على « ايجويت » وعشيقته ، وعبثاً احتجا بأنهما بريئان من تبعة هذا الجرم مستدلين على ذلك بهرب « فولك » و« نينيت » ، فقد أصم الدوق أذنيه ولم يصغ الى ندائهما ، وأحالهما الى التحقيق ، واضطرهما ما تجرعاه من غصص العذاب والألم الى الاعتراف — رغم

براءتهما — بأنهما شريكان فى قتل « مادلين » ولم يكن أمامها — بعد أن فاها بمثل هذا الاعتراف — إلا الموت الوشيك، وبعد لأى ما ، اهتديا الى طريقة للخلاص من هذا المأزق المهلك فلجئا إلى رشوة بواب السجن و وعداه أن يعطياه — اذا أطلق سراحهما مبلغاً كبيرا من المال كانا قد خبئاه فى مكان خفى . ليستعينا به وقت الحاجة

رضى البواب بذلك وأبحر معهم أثناء الليل فهربوا جميعاً الى « رودس » حيث تجرعوا غصص الفقر وأهوال الفاقة ، ولم يلبث العشيقان أن خالفهما البؤس حتى واراهما التراب .

« ك . ك »

تمت

من الأدب الفارسى

الجمال الساحر (١)

حسن هذا الخد — إن قيس به أى حسن — كان عنه قاصراً
كم شموع قد خبت أضواؤها حين لاح الخد نوراً باهراً
فجمال الوجه والاخلاق قد سطعا للناس صبحا سافراً
منطق حلو ، وحسن رائع ، جمعا هذا الجمال الساحرا

كامل كيلانى

---

(١) طلب أحد المعجبين بالأدب الفارسى الى الشاعر نظم هذه الأبيات اعتماداً على الترجمة النثرية من الفارسية — (العصور)